تفسير سورة لقمان

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

تقدم فى أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ،وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم﴾ أى :على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ﴿وأولئك هم المفلحون ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء،وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ الآية [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما روى عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ ـ فقال عبد الله :الغناء ،والله الذى لا إله إلا هو ،يرددها ثلاث مرات . وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾ فى الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾ :والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع . وقيل : عنى بقوله : ﴿ يشتري لهو الحديث﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى . وقال الضحاك فى قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ يعنى: الشرك. وبه قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها، وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرَبَ له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شىء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال : ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية ﴿ وألقى في الأرض رواسى﴾ يعنى : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أن تميد بكم﴾ أى : لئلا تميد بكم ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أى : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر . وقال الشعبى : والناس ـ أيضاً ـ من نبات

الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له فى ذلك؛ ولهذا قال : ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يعنى: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أى : جهل وعمى ﴿مُبِينٍ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

اختلف السلف فى لقمان : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى . وعن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وعن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر ابن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى، وهو ضعيف ، والله أعلم . والذى رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ اى: الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ اى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه . ثم قال تعالى : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله :﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ اى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أى: هو أعظم الظلم. روى البخارى، عن عبد الله [بن مسعود] قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الانعام:٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبِس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (١).

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البِرّ بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد . وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف : ١٥] . وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أى : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أى : إن حَرَصَا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ،ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسناً إليهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعنى : المؤمنين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . روى الطبرانى فى كتاب العشرة : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فىَّ هذه الآية : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتُعيَّر بى ، فيقال : «ياقاتل أمه ». فقلت : لا تفعلى يا أمه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً،ما تركت دينى هذا لشىء ،فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى . فأكلت .

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

(١) البخارى (٤٧٧٦) ومسلم (١٢٤ / ١٩٧) .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . ومَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صَمَّاء ،أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض ، فإن الله يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، لابد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله :﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلَة ، والمخيلة لا يحبها الله » . قال ابن عباس فى قوله :﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقرَ عبادَ الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك .وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلّم وأنت معرض . وكذا رُوى عن مجاهد ، وعِكْرِمة ، ويزيد بن الأصم، وأبى الجوزاء، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم. وقال إبراهيم النَّخعى: يعنى بذلك : التشديق فى الكلام . والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَت أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله :﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى : جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال معجب فى نفسه ، فخور : أى على غيره .

وقوله :﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿واغْضُضْ من صوتك﴾ أى : لا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه »(١) . وروى النسائى عن أبى هريرة ،

(١) مسلم (١٦٢٠ / ٢).

عن النبى ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً ». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه (١) وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار »(٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيؤون بها فى ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل فى الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل ، ومجادلته فى ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى . فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله ، أى : اخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أى : فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾

(١) النسائى فى الكبرى (١١٣٩١) والبخارى (٣٣٠١) ومسلم (٢٧٢٩ / ٨٢) وأبو داود (٥١٠٢) .
(٢) المسند (٥٦٠٥ ، ٥٦٠٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .
(٣) رواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤١١) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » ووافقه الذهبى .

أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزيهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى: فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٦٩، ٧٠].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض ، وحدهَ لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى :إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى: الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

. يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونَفدَ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مَدَدا .وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر. وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام.وقال قتادة: قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية ، يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا نكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شىء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شىء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمـره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه . وقوله :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكريره وتوكيده ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝ ﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية،ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون فى الشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل: إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ كقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠]. ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ، فإنه الغنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه،ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى: العلى: الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل شىء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أى: كالجبال والغمام ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ

الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والامور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر: أتَم الغدر وأبلغه ﴿كَفُورٍ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه،والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شىء ، بل كما قال تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها،فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان، لاعلم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الانعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد عن أبى بُرَيدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:«خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . هذا حديث

صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) . ورواه من وجه آخر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، انفرد به أيضا (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤).

وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام :أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان» . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمَةُ ربَّتَهَا ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العُرَاة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » الآية ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه عَلَىَّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم» (٥) . ورواه البخارى ومسلم (٦) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال: جلس رسول الله ﷺ مجلسا له، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ،والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » . قال:يا رسول الله،حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ :« الإحسان: أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ». قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمس لا يعلمهن إلا هو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، ولكن

(١) المسند (٥ / ٣٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩٣): « رجال أحمد رجال الصحيح ».
(٢) المسند (٤٧٦٦) والبخارى (١٠٣٥). (٣) البخارى (٤٦٩٧).
(٤) المسند (٣٦٥٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح ».
(٥) البخارى (٤٧٧٧). (٦) البخارى (٥٠) ومسلم (٩ / ٥).

إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأَمَة ولدت ربَّتها ـ أو : ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون فى البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرُجى إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟» قال : فسَمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن، فدخلت، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال: « لم آتكم إلا بخير ، آتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تَدَعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شىء لا تعلمه ؟ قال : « قد عَلم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٢). وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملَكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فلا يدرى احد من الناس متى تقوم الساعة ، فى اى سنة أو فى اى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم احد متى ينزل الغيث ، ليلا أو نهاراً ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فلا يعلم احد ما فى الارحام ، أذكر أم أنثى، احمر او اسود ، وما هو ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ اخير ام شر ، ولا تدرى يا بن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الارض ، افى بحر ام بر ، او سهل او جبل ؟ عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى عزة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » . وأخرجه الترمذى وقال : صحيح (٤) . وروى ابن ماجه عن عمر بن على (٥) مرفوعا : «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَته إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » (٦) .

---

(١)المسند (٢٩٢٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح».

(٢)المسند (٥ / ٣٦٨).

(٣)الطبرانى المعجم الكبير (١ / ١٧٨) (٤٦١) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ١٩٩)، «ورجاله رجال الصحيح».

(٤)المسند (٣ / ٤٢٩) والترمذى (٢١٤٧).

(٥)فى المطبوعة والمخطوطة: «عمر بن عكرمة» والصواب ما أثبتناه من ابن ماجه .

(٦)ابن ماجه (٤٢٦٣) وفى الزوائد للبوصيرى: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات» وصححه الألبانى .